المحاضرة الرابعة في مادة القياس والاشتقاق:

القياس في الدرس اللساني الغربي الحديث

-عند سوسير –

أ/ قطاف

أودع فرديناند دي سوسير أفكارا حول القياس، وذلك في الفصلين الرابع والخامس من الباب الثالث، أين كان تركيزه على القياس التماثلي، أو بتعبير آخر القياس الاستعمالي. ويتجلى هذا من خلال استعمال الفرد لأصوات لغته ومفرداتها وتراكيبها، وفقا لما هو متعارف عليه عند الجماعة اللغوية. وكان اهتمامه مُنصبا أكثر على قياس الكلمات، وإن كان يُقرُّ بإمكانية القياس على مستوى التركيب، إلا أنه لم يُولِ له الأهمية الكبيرة.

وبالمقابل من هذا، فإن النظرية التوليدية التحويلية قد نظرت من زاوية أخرى إلى القياس، فهو متعلق بإبداعية اللغة، فالمتكلم يلجأ إليه في عملية الإبداع. ونعني بها الطاقة أو القدرة التي تجعل أبناء اللغة الواحدة قادرين على إنتاج وفهم عدد كبير غير محدود من الجمل التي لم يسمعوها من قبل، ولم ينطق بها أحد قبلهم. فقواعد اللغة معلومة لدى الكثير، وإن إبداع جمل وكلمات لم تسمع من قبل إنما هي من قبيل توظيف القياس. إنّ القراءة المتأنية للقياس في التراث العربي القديم قد يجرنا إلى تسميته في الدرس اللساني الحديث بآلية التوليد، إذا اعتبرنا أن عملية القياس هي توليد عدد لا متناهٍ من الجمل.

أما في الدرس اللساني العربي الحديث فقد عقد الباحث العربي أبوابا للقياس في بعد الاستعمالي أيضا، فمنهم من ينحو منحى الغربيين. يقول إبراهيم أنيس: (وهكذا نرى القياس يتدخل في نمو لغة الفرد دون عمد إليه أو شعور به، فعملية القياس مستمرة في كل لغة وفي كل عصر من عصورها، بل ويقوم بها كل فرد من أفراد هذه اللغة).

وعلى هذا فإن القياس عملية عقلية فردية يقوم بها كل إنسان دونما شعور، الهدف منها إثراء الرصيد اللغوي. إنها عملية لا تحتكم إلى زمن بحده أو مكان بعينه أو طائفة في ذاتها، بل يمتلكها الجميع.

من ناحية أخرى، يشير تمام حسان إلى القياس إلى ظاهرة الصوغ القياسي، وهي ظاهرة تبدأ عند الفرد في طفولته، وتبقى مادام الفرد يستعمل الصيغ ما لم يَرِد على لسانه من قبل.

ويبدو جليا تأثر إبراهيم أنيس وتمام حسان بأفكار الغربيين، وعمدا إلى القياس في بعده الاستعمالي.

القياس عند سوسير:

تحدث سوسير عن القياس التماثلي، مفترضا وجود مثال أو نموذج سابق تُبنى عليه صيغ جديدة. يقول: «القياس التماثلي يفترض وجود نموذج يمكن محاكاته على وجه مُطرّد، فالصيغة القياسية هي بنية تُصاغ على صورة أوزان أو بنيات أخرى حسب قاعدة معلومة». [محاضرات في علم اللسان العام: 205].

وعلى هذا فإن القياس هو صوغ كلمات أو صيغ أو جمل جديدة وفق أخرى مستعملة ومتداولة سابقا، اعتمادا على قاعدة معينة، مع مراعاة القالب الصوتي والصرفي الذي توضع فيه الكلمة الجديدة، وإنّ صياغة الكلمة الجديدة يسمى قياسا.

وفقا لما سبق، فإنّ القياس نشاط لغوي يمارسه الإنسان، يمس الجانب الشكلي من الكلمة، ويختلف تمام الاختلاف عن الظواهر الصوتية وتغيراتها التي تمس بنية الكلمة، بل إنّ الغرض منه هو الحفاظ على كيان الكلمات والألفاظ من كثير من التغيرات الصوتية، أو على حد تعبير دي سوسير الظاهرة الفونيطيقية، واشترط وجود نموذج يقاس عليه، انطلاقا من قاعدة معروفة، ووفق معادلة رياضية، نوضحها بهذا المثال من العربية:

إذا كان جمع (نصيحة =نصائح) فإن جمع (فريدة=فرائد)

ومادام القياس قد تُرجم إلى المعادلة الرياضية السابقة، فيمكن القول إنها عملية ذهنية عقلية فردية تعتمد أساسا على العقل، والعامل فيها هو الإنسان، تجري دونما وعي المتكلم، وتكون فيها الصيغة المستعملة نتاج معادلة رياضية. ثم إن محاكاة صيغة لصيغة أخرى إنما هو حديث عن التجديد والإبداع، فالإنسان ينتج مفردات لم يسمعها من قبل قياسا على ما كان مسموعا. تقول هدى رشيد: «القياس عملية ذهنية فطرية، وهو مظهر من مظاهر التطور والتجديد، فيحتاج إلى مفردات لم يسمعها من لغة

أبويه، لذلك يلجأ غالبا إلى قياس ما لم يسمعه على ما سمعه، فيصبح القياس في هذه الحالة ضرورة وحاجة ملحة يفرضها بقاء الإنسان واستمراره».

وعلى الرغم من كونه طريقا معتمدا في التجديد اللغوي أو التغير اللغوي إلا أنه نسبي إلى حد ما، فالكثير من الألفاظ لا يضبطها ولا ينظمها القياس، فالقياس إنما يجري مجرى الانتظام، ويتجه إلى أن يوحد طرق صياغة الألفاظ وأحوال إعرابها وصرفها، غير أن للقياس شواذ لا تنضبط.

وقد سار على منوال دي سوسير الكثير من الباحثين الغربيين أمثال فندريس، الذي لم يخرج عما ذهب إليه أستاذه، إلا أنه أضاف فكرة جوهرية مرتبطة بالنحو، بقوله إنّ اللغات التي تحتكم إلى القواعد النحوية يصعب التسليم فيها بالعملية القياسية، وبخاصة عند العوام. قال: «النحو كثيرا ما يكون في صراع مع الحس الطبيعي للغة، ففي الأقطار التي يطغى فيها أثر النحاة لا تستسلم اللغة لفعل القياس إلا بصعوبة، إذ تخنق المبتكرات في مهدها ولا تستطيع الحياة».

ففندريس كان يميل إلى القياس الاستعمالي دون النحوي، بل جعل النحو عائقا في توليد الألفاظ وتطورها.

وكان للقياس أن يُضبطَ بمجموعة من الأركان لا تختلف عما جاء به علماء العربية قديما، من مقيس ومقيس عليه وجامعٍ بينهما. ويعد هذا الجامع بينهما، ويعد هذا الجامع نقطة التقاء المقيس عليه بالمقيس، وفي الوقت نفسه يكون نابعا مما هو كامن في عقل أو شعور المتكلم، وقائما على أساس المشابهة بين الطرفين، وقد ترجمت هذه الأركان إلى ضوابط ثلاثة:

أ-الضابط الأول: وجود سابق للصيغة أو الوحدة المقيس عليها.

ب-الضابط الثاني: وجود الصيغة أو الوحدة النحوية المبتكرة.

ج-الضابط الثالث: وجود العلاقة أو الشبه الواقع بين الصيغ أو الأنظمة.

وعلى الرغم من الاخلاف القائم في عدد أركان القياس بين علماء العربية والغربيين إلا أنها تبقى متشابهة.

القياس والتغيرات الصوتية

تبنى علماء اللغة الذين سبقوا دي سوسير فكرة المثالية، وعدم الخروج عن القواعد التي يحكمها القياس، وأن كل خروج عن ذلكم القالب المألوف يعد قياسا خاطئا. وللإشارة فإنّ هذا المفهوم سبق إليه علماء العربية حينما صاغوا له مصطلح "القياس على التوهم"، موظفين في ذلك مجموعة من التسميات كالتوهم والغلط والخطأ في القياس، واستعملها الكثير من العلماء أمثال سيبويه والفرّاء وابن جني والحريري وابن منظور وغيرهم. وقد أشار دي سوسير إلى القياس الخاطئ، وعارضَ فكرة القول إنّ القياس على الشاذ هو ضربٌ من التشويه والخروج عن المثالية، بل إنه يتميز بالمنطقية وكذا توحيد الكثير من الكلمات على صوغ واحد. ولنمثل بما يلي: إنّ مؤنث الألفاظ: سليم وعظيم وكريم هي: سليمة وعظيمة وكريمة. والطفل الصغير إذا قاس على منوال الأمثلة السابقة، فإن جمع أحمر وأصفر هي أحمرة وأصفرة، غير أن هذا النوع لا يقبله الذوق اللغوي العام. قال فندريس: «يخلق الأطفال في مرحلة تعلمهم اللغة عددا كبيرا من الصيغ الجديدة، وذلك باستجابتهم لداعي القياس، ولكن الجزء الأكبر من هذه المبتكرات يصلح فيما بعد، لأنها ليست إلا عوارض فردية ناتجة عن حس غير صائب، أو عن معرفة ناقصة باللغة».

وعليه فإنّ العملية منطقية، بل هو تطبيق القياس على الألفاظ بالطريقة نفسها، وإنّ دمج مثل هذا النوع من الألفاظ في خانة واحدة سيحافظ على الانسجام اللغوي، غير أن تلك العملية باعتبار الأصل أو المقيس عليه خاطئة وغير صحيحة، ثم إنّ التغيرات التي تحدث على مستوى الألفاظ والتراكيب عدَّها البعض من مخلفات القياس، لكنه لا يختلف تمام الاختلاف مع ما يسمى بالتغير الفونيطيقي، فهذا التغير لا يدخل لفظة إلى اللغة إلا إذا اختفت الصيغة الأولى.

وقد وضع دي سوسير مفارقة بين القياس كعملية تمس الجانب الخارجي للكلمة والتغيرات الفونيطيقية أو الصوتية، وحكم على أن القياس ليس تغيرا أو ناتجا عن هذا التغير الذي يمس بنية الكلمة. يقول: «إنّ التغير الفونيطيقي لا يدخل شيئا جديدا إلا وأبطلَ الصيغة السابقة بحذفها، كلفظ hnorem حل محل honosem فإنّ الصيغة القياسية لا تقتضي بالضرورة العدول عن شيء مما حلت فيه ، كما لا تقتضي اسقاط شيء آخر ابتكرت مثله فتضاعف، فقد تَقَارن اللفظان honos , honor في

الوجود وتلازما زمنا طويلا، وكان بالإمكان أن يستعمل أحدهما بدل الآخر»[محاضرات في علم اللسان العام،: 209]. فالقياس ليس تغيرا فونيطيقيا.

إبداعية القياس عند سوسير

ربط دي سوير القياس بالإبداع، واعتبره أصلا من أصوله، فهو عملية ذهنية يقوم بها الإنسان للوصول إلى استحداث ألفاظ جديدة تُدركُ فيها العلاقة القائمة بين الصيغة الجديدة والقديمة، أو بين المقيس والمقيس عليه، وأثر المعنى في ذلك جليّ وواضح. إنه يلعب دورا لا يُستهان به في الجمع بين الصيغ، فهو مربوط بالمعنى في مطلق الأحوال، على عكس التغيرات الفونيطيقية التي يتم فيها استبدال حرف بحرف آخر، لكنه غير قائم على وجود علاقة بين الكلمة الأصلية والمستحدثة.

كما أنّ الإبداع أو الخلق كتجسيد في الواقع لا ينطلق من فراغ، بل ينبغي أن يكون مسبوقا لعملية ذهنية قام بها الفرد، وإنّ الصيغة الجديدة التي توضع فيها اللفظة المستحدثة ما هي إلا نتيجة سبقتها عملية قياسية فردية، فالإبداع غير مرتبط بالصيغة الجديدة في حد ذاتها، وإنّ الجزء الأكبر من الإبداع تم قبل ظهور الصيغة الجديدة، كما أن عملية الخلق تتطلب وجود خلفيات معرفية سابقة تبنى عليها عملية القياس.

يقول سوسير: «فلو أني استحدثت كلمة مثل غير منمق in-decore-able فهذا اللفظ موجود بالقوة والإمكان في اللسان من قبل أن أرتجل هذه الصياغة، وذلك لأننا نجد مثل هذه العناصر موجودة في المحاور الترتيبية مثل: decore-er، وdecoration.pardonn-able، و mani-able، وin-connu، وin-sensé، وإن تحقيق هذا اللفظ في الكلام على اصطلاحنا هو ظاهرة قليلة الأهمية بالقياس إلى إمكانية صياغة ذلك الاسم».

فالقياس وفق هذا المنظور عملية إبداعية لكن مع اعتبارات معينة، وهنا يتدخل النحو ليكون ضابطا في عملية القياس.

بُعدا المحافظة والتجديد في القياس:

يحمل القياس في طياته الطابعين المحافظ والمجدد معا، فمن جهة أنه ذو طابع محافظ فإنه يعمدُ إلى مادة قديمة وفقها تبنى المادة الجديدة، وإنّ صياغة كلمة جديدة لا يتم إلا بالاستناد إلى الصيغة القديمة، ومن هنا يكون شديد الحفاظ على اللغة أو اللسان، وما يجعل الكلمة محافظة على صيغتها مدة طويلة من الزمان هو اطرادها أو استعمالها على ألسنة الجماعة اللغوية.

ويضرب دي سوسير مثالا عن السبب الذي جعل كلمة Agunt اللاتينية تحتفظ ببنائها مدة طويلة من الزمان قال: «إن استقرار بناء كلمة Agunt هو من صنع القياس شأنه في ذلك شأن أي تجديد، فهذه الصيغة Agunt تدخل في إطار هو ذاته داخل نظام، إذ هذا البناء تُعضّده صيغ أخرى موجودة من قبيل legunt. dicunt فهي التي تحميه»[محاضرات في علم اللسان العام: 220]

ومن جهة أخرى لا تخضع بعض الكلمات لعملية القياس، كأسماء الأعلام وأسماء البلدان، بل تحافظ على كيانها الاستعمالي مدة طويلة ولا تتغير. يقول سوسير: «إنّ الصيغ الوحيدة التي لم يؤثر فيها القياس هي بطبيعة الحال كلمات منغردة، مثل أسماء الأعلام، لاسما أسماء الأماكن، مثل باريس وجنيف وغيرها، وهذه الكلمات لا تخضع للتحليل لذا لا يمكن تفسير عناصرها، ولا تظهر كلمة منافسة إلى جانب هذه الكلمات» [سوسير، علم اللغة العام، تر: يوئيل يوسف عزيز: ص195].

وأما صفة التجديد في القياس فتظهر من خلال الصيغ الجديدة التي لم تكن مسموعة أو متداولة، فتأخذ طريقها إلى الاستعمال والتداول بفضل عملية القياس.

خلاصات:

- ✓ اقترن القياس في الدرس اللساني الحديث عند الغربيين بجهود المدرستين الوصفية بزعامة دي سوسير، والنظرية التوليدية التحويلية بريادة تشومسكي.
- ✓ كان تركيز دي سوسير في عملية القياس على البعد الاستعمالي منه، أو ما سماه القياس التماثلي، وقد ربطه تشومسكي بالسليقة اللغوية وبفكرة الإبداع.
- ✓ اهتم سوسير في دراسته للقياس بالجانب الصرفي فقط.

- ✓ عرّف سوسير القياس بأنه عملية عقلية فردية يقوم بها كل إنسان، وبأنه وسيلة خلق وإبداع في اللغة. وهنا يختلف مع بعض الدارسين، أمثال عبد الرحمن الحاد صالح، الذي يرى بأن القياس إنما هو من نتاج العلماء.
- ✓ أشار دي سزسير إلى مفهوم لقياس الخاطئ، وهو مفهوم سبقه إليه علماء العربية قديما، وكانوا يسمونه "القياس على التوهم".
- ✓ ميز سوسير القياس عن التغيرات الفونيطيقية التي تحدث على مستوى الكلمة، ونفى ذلك عنه.
- ✓ القياس عند سوسير متعلق بالكلام، لأن الفرد هو الذي يقوم به، قم إذا تداولت هذه اللفظة تصبح من اللغة.
- ✓ يحمل القياس عند دي سوسير بعدا محافظا وآخر تجديديا، فالأصل يعتبر حِفاظا، والفرع يعتبر تجديدا، كما أنه وسيلة للثراء اللغوي.

مراجع هذه المحاضرة:

- نسيمة حمّار، القياس في الدرس اللساني الحديث –مقاربة وصفية بين دي سوسير وعبد الرحمن الحاج صالح، مجلة المعيار، مجلد 28، عدد 1، 2024 (631-649)